(رد على من ينكر وجود الله)

تقولون أنه لا وجود لله و هذا الكلام لا يخرج عن حالتين :

الحالة الأولى : إما أنكم ليس لكم دليل على وجوده فتقولون إن الأصل العدم و أن وجود هذا العالم لا يدل على وجود الله

فالقول بأنه لا دليل على وجود الخالق لا يدل على عدم و جوده فعدم العلم بالشيء لا يعني العلم بعدمه كما أن عدم العلم بأن للسفينة قبطان لا يعني العلم بعدم وجود قبطان لها، فإن قلتم "الأصل العدم و نحن نلتزم به" قيل إن هذه المقولة تقال عند عدم التمكن من معرفة أإذا كان الواقع خلاف ما جعل أصلا أم لا أما عند التمكن فلا اعتبار بهذا التأصيل لأنه ضعيف كما أنه يقال إن عدم العلم بوجود قبطان للسفينة يجعلني أعتقد عدم وجود قبطان لها عملا بالأصل فهذا ضعيف و لا اعتبار له إذا كانت السفينة متوقفة فكيف إذا كانت تسير و لا يفيد العلم بما في الواقع بل هو مجرد إجراء لقاعدة اجتنابا للبحث أو التردد و ليس اتباع هذه القاعدة يستلزم معرفة الواقع فعاد الأمر إلى عدم العلم بالشيء الواقع و هو ليس علم بعدمه بل هو جهل محض كما تقدم أما نحن فنعلم وجوده فهل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون ؟

ثم إننا لا نسلم لكم بأن "الأصل العدم" بل :

1 - إن كنتم تقولون أن العالم أزلي فإن مأخذ قاعدة "الأصل العدم" هو كون العالم حادث مسبوق بعدم و هي تتعلق بالعالم لا بخالق العالم أما مع القول إنه أزلي فإنه يلزمكم القول بأن "الأصل الوجود" و نلزمكم بها بالقول بوجود الخالق مع أننا لا نوافقكم بأن العالم قديم أزلي.

2 - و إن كنتم تقولون إن العالم حادث مسبوق بعدم فإنه :

- إما أنه وجد أول مرة من غير موجد فهذا يمتنع لأن العدم لا يصنع شيئا و منعدم الذات منعدم الصفات و الأفعال لا يملك وجودا لنفسه فضلا عن غيره ففاقد الشيء لا يعطيه

- و إما أنه هو خلق نفسه بعد أن كان عدما فهذا ممتنع لأن العدم الذي سبقه حكمه حكم العدم الذي تقدم

- و إما أنه له خالق غيره و هذا هو المطلوب

الحالة الثانية : إما أنه لديكم دليل على عدم وجوده :

فإما أنكم تقولون بأن الدليل متعلق بالعالم الواقع :

و هو أنه لو كان الخالق موجودا لحصل "ما نريد في هذا العالم – ثم تأتون بالوصف الذي أردتموه –" فلما لم يحصل ذلك الوصف دل على عدم وجود الخالق.

و هذا الكلام يشبه القول : لو كان للسفينة قبطان لحصل للسفينة "ما نريد – ثم تأتون بالوصف الذي أردتموه –" فلما لم يحصل ذلك دل على عدم وجود قبطان لها

و حقيقة هذا الأمر هو أنه إما أنكم تريدون أن يكون مراد الخالق و القبطان هو مرادكم أم تريدون أن يكون له وصفكم فإن لم يكن كذلك فلا نؤمن بوجوده لأحد أمرين :

إما لأنكم لم تعرفوا الحكمة التي لأجلها سير الخالق عالمه و القبطان سفينته كما هو حاصل فعدم معرفة الحكمة من ذلك لا يلزم منه أنه لا حكمة له فضلا عن القول بأنه لا وجود له و ليس قدحكم في حكمة الخالق و القبطان أولى من القدح في حكمتكم و عقلكم.

إما أنكم تستيقنون وجوده و تريدون أن تجعلوا مراد الخالق في تسييره للعالم و مراد القبطان في تسييره للسفينة تابعا لمرادكم و وصفكم فإن لم يكن كذلك فلا تعترفوا بوجوده فالأول يسمى طغيانا لأنه إرادة التصرف في ملك الملك الأعلى على مرادكم فقد نزلتم أنفسكم منزلته و نزلتموه منزلتكم و الثاني يسمى علوا و ظلما لأنكم و ضعتم أنفسكم مكانه و جحدتم كونه هو القبطان الذي يسيرها.

و إما أن الدليل لا علاقة له بالعالم الواقع و ما يحدث فيه:

فهو من جملة خيالاتكم في هذا الموضع و ليس الأمر إلا أنكم تجحدون وجوده إذ في مجرد عالم الخيال و الذهنيات أمكن كل شيء فهو لا يزن الأمور بموازين الواقع الحقيقي فتخيل عدم وجود الخالق و من ثم طلب ما يعضد هذا الخيال هو من جملة الإنتاج الخيالي الذي لا يستند إلى حقائق واقعية أو يستند إلى خليط من الحقيقة و الخيال فكما أنه يمكن التخيل أنه لا إله يمكن التخيل أنه ثم إله و لا فرق في كونهما خيالا و ليس تعضيد هذا بالأدلة أولى من تعضيد ذاك.

و كل من الجهل و الطغيان و الظلم و الجحد و الخيال لا يعد دليلا على عدم وجود الخالق بل على فساد سريرة صاحبه.

(بقدر زيادة الكمال مع الإشتراك تكون الدلالة على العبودية الكاملة)

إذا افترضنا الكمال في إثنين أو أكثر فلا بد أن يكون إنما كمال في حقهم لكون الإتصاف بوصف في غير حق الموصوف نقص و لابد من اتصافهم بالفعل لنقص من عدم الفعل.

ثم لابد من الإتفاق في الوصف و الفعل فالخلاف يدل على كون أحدهم متصف بما لا يليق بالكمال و هو نقص و كذلك الفعل.

و لا بد من خروج كل منهم عن تحكم الآخر إذ دخول أحدهم في تحكم الآخر نقص، و كون كل واحد فيهم يخرج غيره عن تحكمه و سيطرته يدل على استحالة كمالهم أن يكون مطلقا من جميع الوجوه و ما ذاك إلا لعلة عدم الوحدانية فيدل أن الحكم المطلق ليس لأحد منهم بل لغيرهم فالربوبية إذن ليست من وصفهم.

فهم إذن عبيد لمن دخلوا تحت حكمه و هيمنته و لا بد من وحدانية من هم تحت عبوديته للزوم الشراكة لوصف العبيد و إستحالة الشراكة مع الكمال المطلق من جميع الوجوه كما تبين من انتفاء صفة الربوبية بالشراكة، فربهم هو الرب الأوحد الموصوف بالكمال المطلق من جميع الوجوه فهو الإله الأوحد و هو غير موصوف بأوصاف العبيد.

و هذا يدل على كمالهم في عبوديتهم له إذ الخروج عن وصف العبودية نقص في حق العبيد.

فدل هذا أن الكمال المشترك فيه لا يكون إلا في مقام العبودية و هو إنما مضاف لها، و يتجلى في اجتماع المسلمين للصلاة و اشتراكهم في نفس الوصف و العبادة لله وحده.

فربنا و إلهنا إله واحد هو الله الذي لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى و المثل الأعلى ليس كمثله شيء و هو السميع البصير، و أكمل ما يكون لما سواه أن يكون عبدا مخلصا له سبحانه.

(الكمال إنما عرف بالله)

لما كان فاقد الشيء لا يعطيه كان وجود الكمالات بعد العدم يدل على أن معطيها إنما أعطى كل شيء خلقه ثم هدى بمقتضى كماله فهو أولى بوصف الكمال الذي إنما عرف به و لولاه لما عرفت معرفة و لا كمال، و من ذلك خلقه للخلق على الوصف الأكمل و الأحسن في حقه و فطرة الخلق على محبة الحق و الكمال و ما ينفع و بغض الباطل و النقائص و ما يضر و إلهة – **و هو غاية الحب و التعظيم**- من الكمال المطلق من جميع الوجوه وصفه.

فلما فطر العباد و جبلهم على حبهم و إلهتهم لمن له المثل الأعلى و الوصف الأكمل من جميع الوجوه علم أنه لم يكن ليجبلهم على ذلك إلا لوجود من هذا وصفه و إلا لكان عبثا في جبلهم و فطرتهم على ذلك و هو إشعار بمطلب أعلى لا وجود له و هو غاية في التضليل و التعمية و هو مما يتنزه عنه المخلوق فلا تجد راشدا يحب ذاك لإبنه و أمه و أبيه و لا تجد معلما حكيما يحب ذلك لتلميذه فكيف بالخالق مع عبده الذي ما عرفت الكمالات إلا به و لا أنكرت النقائص و العيوب إلا بهدايته و فطرته للعباد ، فلما علم وجوده من هذا وصفه علم أن هذا الوصف لا يليق إلا بالخالق وحده دون ما سواه

فكل هذا يدل على أن خالقه هو على الوصف الأكمل في حق الخالق و أن هدايته بإعطاء هذه المحبة للحق و الكمالات و البغض للباطل و النقائص دال بطريق أولى على محبته للحق و الكمال و بغضه للباطل و النقائص و هذا لأنه أولى بوصف الكمال و التنزه عن النقائص - فمن قال إن الفاطر فطر المخلوق على محبة الكمال و بغض النقائص و هو ليس مما يُهدى به خلقُه لكان بغض المفطور لهذا التضليل من أقبح ما يتنزه عنه المفطور و ما كان ليهتدي لبغضه من قبل فاطره لو كان الفاطر فاقد بغضه فعلم أن التعمية و التضليل مما يبغضه الفاطر و لا يكون بغض شيء و إتيانه إلا نقيصة يتنزه عنها المفطور و يبغضها و الفاطر هو الذي أودع فيه بغضها و هو أولى ببغضها فلم يكن بد من ظهور آثار بغضها في خلقه لكون عدم ظهور ذلك مما يتنزه عنه المخلوق فضلا عن الخالق فلما كانت النفوس الزكية تتنزه عن الإتيان بشيء مما تبغضه و هي قادرة عن الإمتناع عنه كان هذا التنزه عن هذه النقيصة من آثار تنزه فاطرها عنها فهي منفية عنه أصلا لما كملت قدرته و كمل علمه و هو غني عن خلقه فعلم أن التعمية و التضليل من أقبح ما يتنزه عنه الفاطر و لذلك فطر خلقه على حب الهداية و البيان التي هي من الكمال الذي خلق عليه الإنسان - و يدل على أن فاطرهم على إلهة من الكمال المطلق من جميع الوجوه وصفه هو أهل هذه الألوهية فهو صاحب الكمال المحب لما هو كمال المبغض للنقائص و العيوب المنزه عنها إذ لو كان فطرهم على إلهة من ليس أهل للإلهة لكان تعمية و عبث يبغضه المفطور و ما ذاك إلا لبغض الفاطر له و ليس ثم من هو أهل للإلهة إلا من إنما به عرف الكمال و التنزه عن النقص و قد انتفت الألوهية عن غيره من المخلوقين المفطورين فكانت الألوهية له وحده دونما سواه **فهو وحيد لكونه ربا لا عبدا يعتريه النقص مثلهم كما تقدم** فالوصف الأكمل في حقه إذن هو الكمال المطلق من جميع الوجوه لإتصافه بالكمال و تنزهه عن النقص فهو الإله الأوحد تماما كما فطرهم لا يألهون غير من هذا وصفه ففطرتهم على ذلك حق لكونه هو صاحب هذه الألوهية و هو صاحب هذا الحق دونما سواه.

و تفصيل ذلك هو أن العبد مفطور على الحركة نحو ما يبدو له أحسن و أنفع و يبتعد عن ضد ذلك فهو يحب أن يكون على أحسن و أكمل وصف و يبغض القبح و النقص بفطرته إذ هو مسبوق بالعدم فإن تأمل في نفسه علم أن فاطره هو الذي أراده أن يكون مفطور على هذا النحو فعلم أن فاطره يحب له أكمل وصف في حقه و لا يحب له شيئا من العيوب و النقائص في حقه و أكمل وصف للمفطور هو

إخلاص العبودية لفاطره و الإيمان به ليكون مع المؤمنين و يبغض اتصافه بضد ذلك من عدم إخلاص العبادة له و الكفر به كوصف المجرمين فكمال المخلوق يحصل بفعله لما هو أولى به.

و كذلك و هو ينظر إلى العالم الذي حوله يجده على أجمل و أحسن و أكمل وصف و بهذا يعلم ما يتصف به خالقه فيعلم وجوده و قدرته و مشيئته و علمه لإستحالة صدور الفعل الإختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له و لا حياة و لا علم و لا إرادة، فعندما يرى تناسق هذا العالم و انتظامه و إئتلافه يعلم وحدانية موجده و حكمته فلم يخلقه عبثا و إنما لغاية حميدة و عظيمة و هي أن يعبد وحده فلا يشرك به و هذا أكمل وصف يلحق بالمخلوق، و لما يرى فيه من الكمالات التي لو عدمها كانت ناقصة يعلم أن معطي تلك الكمالات هو أولى بها، و كما أنه يجد في نفسه حبها يجد في نفسه بغض أضدادها من صنوف النقائص فيعلم أن من هداه لحب الكمالات و بغض النقائص أولى بوصف الكمال و التنزه عن ضده فحقه أن يعبده وحده فلا يشرك به لاستحقاق من انفرد بالكمال المطلق أن يفرد بالعبادة التي هي غاية الحب و التذلل و التعظيم، فلما يرى في العالم من التخصيصات المتنوعة يدرك إرادة صانعه و أن فعله ليس الطبع، و ما فيها من المصالح و الحكم و الغايات المحمودة دال على حكمته، و ما فيها من النفع و الإحسان و الخير دال على رحمته، و ما فيها من البطش و الإنتقام و العقوبة دال على غضبه، و ما فيه من الإكرام و التقريب و العناية دال على محبته، و ما فيها من الإهانة و الإبعاد و الخذلان دال على بغضه و مقته، ...

فكما تعلقت محبته و إحسانه و رحمته بالمؤمنين الذين عرفوا حقه فعبدوه مخلصين له الدين، تعلق غضبه و بغضه و مقته بالمجرمين الذين كفروا به أو بنعمه و ألحدوا في وصفه أو أشركوا به ما ليس لهم به علم من العالمين فكان سبحانه أهل لتظهر آثار رحمته بالمؤمنين و آثار غضبه و مقته بالمجرمين فجعل ما في هذا العالم من ابتداء الشيء في غاية النقص و الضعف ثم سوقه إلى تمامه و نهايته يدل على وقوع اليوم الذي تظهر فيه آثار رحمته و غضبه و مقته، و ما في حياة الإنسان من ابتداء و نقص و نهاية حياته و انقطاعها دليل على إمكان المعاد بعد الموت و أنه لم يخلق في هذه الحياة إلا للإمتحان و خلق لحياة أخرى بعده يظهر فيها كماله فيفرق فيها بين المؤمنين و المجرمين و بعدله و حكمته و رحمته و مقتضى كماله تجزى كل نفس بما تسعى.

فكل كمال عرف إنما هو من عنده و إعطائه إياه الحاصل بإرادته بعلمه و حكمته سبحانه، ففعاله كلها من كماله و هو على صراط مستقيم ففعاله حق و أسماؤه و صفاته حق و هو الحق و هو يحب أسماءه و صفاته و كل ما هو واقع فإنه واقع بأمره و هو سبحانه لم يقدره سدى و لا قضاه عبثا بل لحكم و غايات حميدة و لو بدت مما هو مكروه الحاصل بإمساكه عن إعطائه بعلمه و حكمته و عدله فهو يحب غاياتها و إن كره أسبابها و مبادئها فإنه سبحانه و تعالى يحب المغفرة و إن كره معاصي عباده و يحب الستر و إن كره ما يستر عبده عليه و يحب العتق و لو كره السبب الذي يعتق عليه من النار و يحب العفو و إن كره ما يعفو عنه من الأوزار و يحب التوابين و توبتهم و إن كره معاصيهم التي يتوبون إليه منها و يحب الجهاد و أهله بل هم أحب خلقه إليه و إن كره أفعال من يجاهدونهم و سر هذا أنه كامل في أسمائه و صفاته فله الكمال المطلق من جميع الوجوه الذي لا نقص فيه بوجه ما و هو يحب أسماءه و صفاته و يحب ظهور آثارها في خلقه فإنه سبحانه جواد يحب أهل الجود رحيم يحب الرحماء كريم يحب الكرماء عليم يحب العلماء قوي و المؤمن القوي أحب إليه من المؤمن الضعيف حيي يحب أهل الحياء وفي يحب أهل الوفاء شكور يحب الشاكرين صادق يحب الصادقين محسن يحب المحسنين فإذا كان يحب العفو و المغفرة و الحلم و الصفح و الستر لم يكن بد من تقديره للأسباب التي تظهر آثار هذه الصفات فيها و يستدل بها عباده على كمال أسماءه و صفاته و يكون ذلك أدعى لهم إلى محبته و حمده و تمجيده و الناء عليه بما هو أهله فتحصل الغاية التي خلق لها الخلق و إن فاتت من بعضهم فإن ذلك الفوات سبب لكمالها و ظهورها فهو إنما أوقع ما يكره لما يترتب على حصوله ما هو أحب إليه من حبه لضد ذلك المكروه و لذلك كان اليوم الآخر هو اليوم الذي تجزى فيه كل نفس بما تسعى و يوصل لكل نفس ما تستحقه من اللذة أو الألم فمن يعمل مقال ذرة خيرا يره و من يعمل مقال ذرة شرا يره بمقتضى كماله فتشهد الخليقة كلها بذلك و تحمده عليه، فما عرف الكمال إلا به فالخير كله بيديه و الشر ليس إليه، فأهل هو أن يعبد و يحمد وحده سبحانه.

(فصل في دلالة الفطرة و العقل على التوحيد الذي هو حق الله على العبيد)

من عرف بفطرته و عقله أنه لا رب سوى الله و أن الكمالات إنما عرفت به و أصلها من عنده و أصل النقائص من عند المخلوق فعرف ما يتصف به ربه من كمال العلم و القدرة و الغنى، علم افتقاره لربه و أنه ما أودع فيه من النعم إنما حصلت من عنده و لولاه لعدمها، فهو مخلوق لله بعد العدم، و ما حصل له من العلم و القدرة بعد جهل و عجز إنما هو من عند ربه و ما جعل له من السمع و البصر و الفؤاد إنما من عنده بعد عدمها، فيدرك أن أصله العدم و أنه ما به من نعمة فمن الله فيعرف نفسه و فقرها و جهلها و عجزها و عدمها كل مقوماتها لولا الله الذي خلقها و فطرها و أودع فيها محبة الحركة لما ينفعها و

دفع ما يضرها و جعل ذلك آية فيها لتستدل بها على كمال خالقها و بارئها و فاطرها و مصورها كما جعل سائر النعم آيات لشكرها و التفكر فيها و تستدل بها على صفات المنعم و وجوه كماله و يكون ذلك أدعى لعبادته و محبته و تعظيمه و رجاء رحمته و فضله و إنعامه و الخوف من إبعاده و خذلانه و لعنته، إذ لا يفعل شيئا بعباده إلا بمقتضى كماله ففعله حق و وصفه حق و هو الحق و إنما الحق عرف به فعرفت أنه إلهها الحق و أنه لا برهان لها بألوهية غيره و أن اتخاذ إله معه ظلم في حقه فقد فطرها تعرف ربها و إلهها الحق و تعرف كماله و لم تكن لتعرف ذلك إلا بفاطرها و منعمها فقد بين لها ذلك في آياته أبلغ بيان و جعل لها السمع و البصر و الفؤاد لتدرك ذلك تمام الإدراك و هداها بفطرتها لمعرفة ذلك و شكر نعمه عليها فعلمت أن فاطرها يحب لها البيان و الهداية بمقتضى كماله و قد أظهر آثار ذلك فيها بمحبتها هي لذلك و بغضها لضده فمودع محبة البيان و الهداية محب للبيان و الهداية لمستودعه مبغض للتعمية و الإضلال له و من كان هذا شأنه فعدم إيداعه فيها لما يقتضي ألوهية غيره و عدم جعل برهان على ذلك في آياته و نعمه مع بلاغة و وضوح بيانه لذلك على ألوهيته و كماله من جميع الوجوه هو أبلغ برهان و آية على أنه لا إله غيره أصلا، فالتعمية و الإضلال و الجهل و التجهيل من أعظم ما يتنزه عنه من أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، و كذلك معرفة المخلوق بقدره و فقره و أنه لا يدل حصول شيء له من الغنى إلا على كمال افتقاره لربه و إمداده بالنعم من العلم و القدرة لا تدل إلا على شدة حاجته لمن أمده بها و بغيرها، و إذا كان هذا شأن المخلوق مهما كان فلا حق له في شيء من خصائص ربه و ليس له أن يحكم حكما إلا تلقيا عن ربه و تحكيما له، فمن أصدر حكما بأن ثم إله معه فقد ظلم أشد الظلم و افترى أعظم افتراء بغير برهان من ربه و قد نازع بذلك ربه في إصدار الأحكام و جاوز حده و طغى فصار طاغوتا بمنازعة ربه في خصائصه، فعلم أنه :

لو لم يكن ثم ظلم لم يكن ثم شرك بل بقاء على الأصل الذي هو توحيده فلا إله غيره، و إنما كانت عبادته وحده و إخلاص الدين له لأجل ما يتصف به من الكمال، فلما كان هو صاحب الكمال المطلق من جميع الوجوه و كانت الكمالات إنما به عرفت كانت فعاله من كماله فدلنا فعلا على نفسه و فطرنا على توحيده و أمرنا به لإتصافه بما يستحق لأجله أن يعبد وحده فلا يشرك به شيئا، و نهانا عن الإشراك به و هو بكل شيء عليم لعدم اتصاف غيره بما يستحق أن يعبد لأجله حفظا لنا من تسوية غيره به ، و كانت دلالته لنا على نفسه و حفظه لنا من الإشراك به من أعظم ما يستدل به على كماله و أنه لا معبود بحق سواه.

و لما كان الطاغوت داعيا للإشراك به أمرنا الله أن نصرف له الكفر به و هو ضد ما يصرف لله من الإيمان به وحده، فكما أن العاقل عرف أنه لا ينبغي إلا أن نصرف لله العبادة من المحبة و التعظيم و الخوف و الرجاء و سائر العبادات مخلصين له الدين و الإنتماء إلى حزبه و ما يقتضي من ذلك من الموالاة فيه إيمانا به، عرف أنه من نازع الله في خصائصه لابد من صرف العبادة عنه و التبرؤ منه و من حزبه و بغضه و إهانته و عداوته و جهاده و التقرب إلى الله بذلك كفرا بهذا الطاغوت، فصار بذلك الناس إلى حزبين :

حزب آمن بالله و عبده فلم يشرك به شيئا، فهؤلاء هم المؤمنون أولياء الله الذين شكروا نعمته و عرفوه و أيقنوا أمره فاستجابوا له ووحّدوه.

و حزب أولياؤهم الطاغوت الداعي إلى الإشراك بالله بغير برهان فاستجابوا له و عبدوه، و ما كان له عليهم من برهان إلا أنه دعاهم فاستجابوا له.

فالذين آمنوا هم قوم على هدى من ربهم و يقين به و بينة منه، أخرجهم الله من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، و الذين كفروا قوم على ضلال و ريب لما عبدوا الطاغوت و استجابوا له بغير برهان فأخرجهم من نور الفطرة و التوحيد إلى ظلمات الشرك و التنديد.

ثم الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله و الذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، و هم في تلك الظلمات يقاتلون أولياء الرحمان يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فالحسن و القبح إنما يستمدون معانيه من عند الطاغوت الذي يعبدونه، و يوم الدين ينال كل من الفريقين ما قدموا و يحشر كل مع وليه بمقتضى حكمة الله و كماله، فالرحمان يسوق أولياءه إلى الجنة برحمته و فضله، و الشيطان يسوق أولياءه إلى جهنم مخلفا لما وعدهم به فيعلمون أن وعد الله حق و أنهم هم أصحاب النار.

(فصل في دلالة ما سبق على صدق الأنبياء و صحة ما جاءوا به)

و كذلك إن لم يكن هناك ظلم لم يكن هناك كفر بالأنبياء و تكذيب لإرسال الرسل، لأنه مبني على تقبيح قضية إرسالهم و هو بلا شك تحكم بلا برهان مع العلم الضروري بالحاجة إلى الهداية الربانية، لكن حصل تقديم حكم الجاهلية على حكم الله في تحسين و تقبيح إرسالهم، و على هذا الأساس الظالم ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا ؟، و لا يقول هذا إلا معظم لحكم هواه و نفسه و شيطانه، غير عارف بقدر نفسه و صغرها و جهلها و حاجتها للهداية أكثر مما تتصور، فلما حسبت أن لها شيء من الهداية من تلقاء نفسها تحكمت على أمر ربها و أخذت تقبح أمر إرساله للرسل مهملة بذلك أن هذا التحكم و التقبيح لا حق لها فيه، إنما الأمر كله لله و الحكم كله له، و ليس لها إلا تحكيم أمر الله و الخضوع و الإنقياد له بمقتضى ما ينبغي لها أن تعرف من كماله سبحانه و جهلها و عجزها و افتقارها لهدايته، التي من شعبها معرفة حسن إرسال

الرسل لهداية الناس و إخراجهم من ظلمات سوء الظن بالله و تقبيح أمر إرسال الرسل و الإستغناء بالنفس عنهم إلى نور حسن الظن به و حسن إرسال الرسل و حاجة النفس لهدايته تقديما لحكم ربها و هو الحكم الأحسن و الأحكم و الأرحم على حكم النفس الظلومة الجهولة فمن عرف نفسه عرف حاجتها للهداية و عرف حسن إرسال الرسل و من فاته شيء من معرفة نفسه حصل له من انتقاص لربه بقدر ما فاته من معرفة نفسه، و كذلك لا شأن لها و لا حق لها في التعرض لأوصاف الآيات التي يجريها الله على أيدي رسله و لا حق لها في التحكم في ذلك أو تشترط فيه كمن قالوا لنبيهم : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك بيت من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله و الملائكة قبيلا أو تكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء و لن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه فكل هذه الإشتراطات إنما تصدر من معظم لنفسه لا يعرف قدر ربه و حكمته و علمه و سائر صفات الكمال المتصف بها فهو يجهل الهداية التي ينبغي أن يكون عليها ليعرف ما ينبغي أن يجريه الله على أيدي رسله و ما ذاك إلا لعدم معرفته لنفسه و جهلها و ظلمها أضعاف ما يتصوره، و لهذا كان كلما ازداد معرفة بنفسه ازداد معرفة بربه حتى يعلم أن ما يجريه من عرف كمال وصف على أيدي رسله لا يكون إلا تأييدا و نصرة لهم بمقتضى ما عرفه عن ربه و أنه لا ينبغي له أن يضلل العباد و يعمي عليهم و هذا ينشأ عن معرفة النفس حتى تعرف أن ما يجريه الله على أيدي رسله إنما يكون بمقتضى كماله فإذ عرفت ربها و صفات كماله و عرفت نفسها و أنه ليس لها شيئا من الحكم في ذلك عرفت أن ما أجراه الله على أيدي رسله من الآيات هو الكافي لهداية الناس و إقامة الحجة عليهم، و إنما يهدي من اتقى فيكون شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين الذين حكموا أنفسهم على أمر ربهم إلا خسارا، فتعرف كمال عدل الله و أنه لم يجر الآيات لإلزام الناس و إكراههم على الإيمان بل جعلها امتحانا للتمييز و التفريق و فرقانا يتفرق بها بين أهل التقوى و الإيمان الذين يزكون أنفسهم و بين أهل الفجور و الكفران الذين يدسونها فتحصل المباينة الحق في الدنيا و ما يترتب عليها من إلحاق كل نفس ما تستحق يوم الحق، و يكون هذا الفرقان من أعظم الآيات على صدق ما جاء به الرسل،و هكذا في سائر الآيات التي أجراها الله على أيديهم.

فالمعرفة بصفات الله و كماله و بحاجة النفوس للهداية و افتقارها لها توجب الجزم بأن إرسالهم حق و ما بعثوا به حق و إلا لزم وصف الله بالنقص و هو ممتنع، فليس من شأن من له الكمال المطلق أن يترك الناس هملا بغير هداية من عنده مع شدة حاجتهم إليها، و لا أن يجعل رسله يصفونه بغير ما يليق به و لا أن تفتقر رسالاته إلى حكمه بين الناس و لا أن يكون حكمه غير قابل للتنفيذ أو غير مقدور عليه أو غير بين أو غير ذلك من صنوف الإعوجاجات التي تنسب للأديان، فليس دين الله بالأعوج بل دين الموصوف بالكمال كامل و رسله على أكمل وصف يلحق بالعباد فلا يكون وصفهم كوصف تنزل عليهم الشياطين و ما ينبغي لهم و لا يستطيعون و من لم يزك نفسه لم يعرف هذا فما أمكنه التفريق بين الفريقين بل إنما تنزل على كل أفاك أثيم و من بالنقائص و العيوب هم موصوفون، ثم يكون دينه بأبلغ بيان متضمن لأحسن الأحكام و لذلك أرسل الرسل من جنس من أرسل إليهم ليتمكن أتباعهم من الإستنان بسنتهم، فلو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزل الله عليهم من السماء ملكا رسولا.

و هذا الوصف الذي ينبغي للرسل هو الوصف الذي يمنع أن يكونوا كاذبين أو مجانين أو غيرها من الأوصاف التي يبهت بها المرسلون، فلما جاءوا بهذا الوصف و بهذا الدين القيم ثم أيدوا بالآيات التي من جنس خوارق العادات المستصحبة للخير و البركات كانت معرفة العبد بكمال ربه و عيب نفسه و حاجتها للهداية من ربها من أعظم ما يؤدي به للقطع بصدقهم و صدق ما أرسلوا به و الإيمان لهم و لكان تكذيبهم من أقبح ما يصف المجرمون به ربهم من التعمية على عباده و تضليلهم مع عدم إمكان كونه امتحانا لهم بوجه للثبات و الصبر و هو الجهل بعيوب النفس و نقائصها و هذا هو أعظم الظلم و هو الذي يمنعهم من التصديق برسالات ربهم و الإيمان لهم بل مؤد بهم حتما إلى معاداتهم و محاربة أتباعهم، فإرسال الرسل هو امتحان للفصل بين الفريقين بعد أن كانوا مختلطين لا تبدوا منهم زكاة الأنفس فما تفرقوا إلا من بعد ما جاءتهم البينة، ففريق السعداء الذين يزكون نفوسهم فيخشون ربهم، و فريق الأشقياء الذين يدسون نفوسهم فيجنبون ذكر ربهم، فيعلم المؤمنون أن هذا التفريق حق و شفاء و رحمة لهم و لا يزيد الظالمين إلا خسارا.

و لما كان داء أهل الشقاء تعظيم النفس و سوء الظن بالله و الإشتراك معه في إصدار الأحكام في اتخاذ آلهة معه و من ثم تقبيح إرساله للرسل و الإقتراح عليه في أوصاف آيات الرسل كان أهل التقوى بالمقابل يعرفون أن تحسين الحسن و تقبيح القبيح إنما هو من الله وحده بعدما عرفوا أن أحوج حاجاتهم هو الهداية من عنده فلم يتجرءوا على تقبيح شيء مما يفعله، بل لا يزالون متهمين لأنفسهم بالضلالة منتظرين من عند ربهم الهداية لمعرفة ما يحسن و ما يقبح لأنهم يعرفون أن كل ما هو من عنده يجمل و أن هدايته لهم هي من أعظم آثار كماله، فعرفوا

قبح جرءة الأشقياء على الإشتراك مع الله في خصائصه و إصدار الأحكام معه و عروفوا مناسبة إرسال الرسل و ما يتصفون به من كمال الخلق و ما يدعون إليه من التوحيد و نبذ إشراك شيء مع الله في شيء من خصائصه و أن كل ما يجري على أيدي الرسل من الآيات دال على أنه لا يتأتى إلا تأييدا من عند الله و تصديقا لهم و أن ذلك من مقتضى كماله فتوافق أرواحهم التي فطرها الله على حب الحق و بذل كل شيء في سبيله ما وقر في قلوبهم من معرفة أنه الحق و أن ما سواه باطل فيزدادون معرفة بحسن الحسن و قبح القبيح و موافقة ذلك للفطرة التي فطرهم الله عليها ليزيدهم إيمانا على إيمانهم و يقينا بربهم و أنه سبحانه منزه عن النقائص، يبعث الرسل بمقتضى كماله و يجري على أيديهم ما لا يدل إلا على كون ذلك من عنده و هو رب كل شيء غني عن العالمين و لذلك كان برهانه مبين لا يخفى فلا يدل الإخفاء و الإبهام ثم إلا على الإفتقار إلى ما لأجله أخفى ما أخفى و هو سبحانه منزه عن ذلك بل هو الحق المبين، فلا سبيل بعد ذلك للمستكبرين إلى تبديل شيء منه إلا و كان أمرهم مفضوحا فلا يجدون سبيلا إلا الجدال في آيات الله بغير سلطان أتاهم، لأنهم أسندوا الحكم بالحسن و القبح لأنفسهم فأدى بهم إلى محاسبة غيرهم ليكونوا جبارين في الأرض، فيتجرؤون على الأنبياء و الرسل و أتباعهم و يتعرضون لما جاءوا به من البيان فيجادلونهم بغير برهان و منه قول قائلهم أبعث الله بشرا رسولا ؟ تقبيحا لفعل الله غير عارف بقدر نفسه و لا مقرا بكمال ربه متجرءا عليه مكذبا بآياته و رسله مستهزئا بها، فداؤه سوء الظن بربه و حسنه بنفسه فحكم حكم نفسه على حكم ربه كحال من سبقه إذ قال "أنا خير منه"، فحسن الظن بالله ناشئ من الإعتراف بالنعم مانع لحسن الظن بالنفس مورث لشكر النعم، و حسن الظن بالنفس ينبت في أرض الإستكبار بالنعم فيمنع حسن الظن بالله مؤد بذلك لإنكار النعم.

التوحيد و الرسالة بالعقل و الفطرة

(تهدى و لا تباع)

إعداد :

أبو الفداء محمد بن إلياس المغربي

رحمه الله

- دار التوحيد -

هذه المطوية تحتوي على ألفاظ الجلالة وآيات قرآنية و أحاديث

احذر من تركها في مكان مهين